أنثروبولوجيا الحكاية الخرافية
قراءة في الأصول الفكرية والعقدية للحكاية الخرافية

الأستاذ:حـاتم كعـب
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة العربي بن مهيدي أم البواقي

ملخـــص:

يسعى هذا المقال إلى توضيح الأصول الفكرية والعقدية للحكاية الخرافية، وبتعبير آخر، يبحث عن الكيفية التي وجد بها هذا الفن الخرافي مُكَوِّنًا لأقدم أشكال التعبير والتأليف الأدبي عند الإنسان الأول، أو عند مجموعة الشعوب البدائية التي كانت تعيش على الفطرة، وتفتقر إلى أسس التفكير العلمي.

Résumé :

A travers la présente étude, nous tenterons d'éclairer la genèse et les fondements du récit légendaire. Ce genre constitue l'une des formes d'expression les plus anciennes, sa présence a déjà été attestée dans les sociétés primitives dépourvues du raisonnement scientifique.

منذ كان الإنسان الأول والسؤال يلازمه، فمن زمان الجوع والعطش إلى زمان البرد والقرّ يحاول أن يعيش، فانطلق مع الحياة رفيقا لها منذ فجرها، على أنّه - مع هذه الرفقة- لابدّ من فهم ولابد من معرفة، فالحياة بكل ما فيها من مظاهر كونية دعت الإنسان للتوقف عندها، فالقمر لا يظهر حين يظهر ولا يغيب حين يغيب إلا وقد ترك في نفسه شيئا وكذلك حال الشمس حين تشرق وحين تغرب والريح والعواصف حين تشتد فتنغص عليه عيشه، وغيرها من مظاهر الطبيعة بل وقد حيّره أمر الكائنات الأخرى التي تقاسمه عناء الحياة على ظهر هذه الأرض، كل هذا حصل عنده العديد من الاحتياجات[1] الفكرية التي استدعت الإجابة عنها في تلك الآونة المتقدمة، من هنا بدأت الدهشة لديه وبدأ السؤال، وبدأ معها التأمل والسعي وراء الفهم ورحلة البحث عن الحقيقة، وربما تجسدت الإجابة عن كل ما سبق في الإرث الثقافي والقصصي الهائل الذي خلفته هذه الشعوب بمختلف أشكاله بما فيها الحكاية الحيوانية والخرافية عامة، والتي تعود في اعتقاد أغلب دارسي الأدب الشعبي[2] إلى معتقدات[3] وتأملات إنسانية بائدة موغلة في الزمن الأول «إن الحكايات الشعبية بأسرها، ومثلها الحكايات الخرافية والأساطير هي بكل تأكيد بقايا المعتقدات الشعبية، كما أنها بقايا تأملات الشعب الحسية وبقايا قواه وخبراته»[4]. وهذه المعتقدات التي وصلت لإنسان اليوم عن سليله بالأمس «تصل في تاريخها إلى أقدم العصور، وتتاح لها الفرصة للظهور من خلال تلك التأليفات التي تصور مدركات غير حسية، وهذه المعتقدات الأسطورية شبيهة بقطع صغيرة من أحجار متناثرة بين زهور في أرض خصبة لا يكشفها إلا ذو بصر حادّ»[5].

هكذا بدأ هذا الفنّ الخرافي والأسطوري مكونا لأقدم أشكال التعبير والتأليف الأدبية، ممثلا في ذلك الزمن البعيد بداية رحلة الإنسان المستمرة، في محاولة إيجاد الانسجام مع كلّ ما يحيط به من مظاهر الطبيعة المختلفة، «ونحن نرى كيف أن هذه التآليف الأدبية قد تكونت ارتجالا من السمو عن الأشياء المادية، لكي تخلق نوعا من الانسجام مع الواقع»[6]. وكل هذا مرتبط بالإنسان عندما كان «يحلم لأنه لم يكن يعرف، وحينما كان يعتقد لأنه لم يكن يرى، وحينما كان يؤثر فيما حوله بروح ساذجة منقسمة على نفسها»[7]. وهي من هنا

مثلت المعتقد في مهده عند الإنسان البدائي، ولم تكن ضربا من اللهو والتسالي، ولا مطية للرمز، كما هي حالها الآن «فبعض حكايات الحيوان؛ كالحكاية التي توضح شكل الحيوان وطبيعته وصفاته، تتضمن أصلا دينيا هو جزء من أساطير الآلهة»[8].

ولعل أبرز مثال على ذلك ما جاء مبثوثا في ثنايا ملحمة "جلجامش" البابلية التي تعدّ «أقدم الآثار وأجدرها بالتقدير»[9].

هذه الملحمة التي تعود إلى عصور ضاربة في القدم، وهي تنسب إلى السومريين، إذ «يرجع الأصل الأول للملحمة إلى السومريين أقدم سكان بابل»[10]، ومهما كان من أمر مبدع هذه الملحمة، فقد تضمنت أحاديث وأخبارا مثلت الحيوانات طرفا فيها.

ومن هذه النماذج والحوارات التي دارت بين "آنجيدو" وحيوانات الغابة، فقد كان آنجيدو صديقا للحيوان[11].

وكذلك حال الآلهة "عشتروت" التي كانت نذير شؤم على محبيها الذين مسخوا إلى صور حيوانات؛ فهذا حبيبها الثاني «الذي كان راعيا أصبح طائرا مكسور الجناحين، فيصيح شاكيا في الغابة كابيا: "آي واجناحاه"»[12].

والأمر نفسه يقال عن حبيبها الثالث الذي «مسخ في صورة أسد يقتفي الناس أثره»[13]، ولم يكن الرابع أحسن حالا من سابقيه؛ فقد « مُسخ في صورة فرس يضربه الناس بالسياط، ويستثيرون غضبه ويخزونه، وكان عليه أنْ يركض سبع ساعات مضاعفة وأن يثير المياه قبل أنْ يتمكن من الارتواء»[14]، كل ذلك جراء حبّه للآلهة "عشتروت" هذا الحبّ الذي حلت لعنته على حبيبها الخامس الذي «كان راعيا، وربما تحول إلى ذئب يقتفي الشبان من الرعاة أثره، وتعضه كلابهم»[15].

ولم تغادر هذه اللعنة أصغرهم الذي ناله من المسخ ما نال سابقيه، وهكذا تشكلت ملامح هذا العمل الفني الرائع الذي صوّر رحلة عن الخلود، وسرّ الحياة الأبدية والابتعاد عن الموت الذي مثّل هاجسا شغل الإنسان وقوّض مضجعه منذ أقدم العصور، وما زال كذلك إلى يومنا هذا، ولعل مشاركة كل تلك الشخصيات الحيوانية التي أوردناها في نسج خيوط هذا العمل، تمنحنا المبرر - ولو بصورة نسبية- لضمّه وإيراده تحت ما يسمى "الخُرافة" أو

قصص الحيوان، فالجنسان "الأسطورة" و"الخرافة" متمازجان – كما أسلفنا-: «وربما تبيّن لنا هنا الاتفاق الواضح كل الوضوح بين عالم أسطورة الآلهة، وعالم الحكاية الخرافية، وقد أشرنا إلى أنه ليس هناك - في رأينا- اختلاف جوهري بين هاذين النوعين في المرحلة الأولى»[16].

كما سبق الذكر فإن الإنسان البدائي كان دائم التساؤل والحيرة في كلّ ما يحيط من مظاهر الطبيعة وأشكالها المختلفة بما فيها الحيوان الذي كان يمثل جزءا هاما من هذه الطبيعة، فقد زاحم الإنسان الحيوان وقتها على المواطن التي كان يسكنها، وأدت هذه المعايشة بينهما إلى أن اعتقد الإنسان فيه اعتقادات شتّى؛ كاعتقاده «أن للحيوان روحا مثل روحه، وأنها تبقى بعد موته، واعتقاده أيضا أن هذه الروح تستطيع أن تنجو من الموت الذي يلحق بجسومها، سواء بالتحول كأرواح مجردة أو بالميلاد مرّة أخرى في صورة حيوانية»[17].

ونستطيع أن نمثل لذلك من خلال عقيدة "تناسخ الأرواح" التي دعا إليها "بوذا" التي تمثل الإرهاصات الأولى لهذا الفنّ عند الهنود؛ ذلك أنها وجهت النظر إليه من خلال اعتقادها أن الروح الإنسانية يكتب لها الخلود بحلولها في أجساد الحيوانات، «وذلك التصور أتاح لقصص الحيوانات قدرا واسعا للانتشار باعتبارها تمثيلا لمرحلة من مراحل تطور الروح الإنسانية»[18].

ويعد كتاب "جاتاكا" الأثر الذي صور أصول عقيدة "بوذا" من خلال سرده للكثير من الحكايات حول وجود "بوذا" في صور الحيوانات والطيور؛ حكايات يرجع الكثير منها إلى عصور بعيدة قبل الميلاد[19].

والإنسان من خلال هذا الاعتقاد يكسب حياة ثانية بتجسده أو تناسخه مع مختلف الصور الحيوانية، ويمكن تبسيط ذلك من خلال الخطاطة الآتية:

إنسان (صورة بشيرة)

↓

موت(نهاية الحياة الأولى)

↓

إنسان(صورة حيوانية- بداية حياة ثانية-)

هكذا نشأت القصة الحيوانية بصورة فطرية عند كلّ شعوب العالم، محاولة الإجابة بطريقة ميتافيزية وأسطورية عن أسئلة الكون تجري في كل ذلك مجرى الحقائق بين الناس[20].

ولربما يكون الإيحاء المركزي[21] قد لعب دورا هاما في تقبل الشعوب القديمة لهذه الأفكار والمعتقدات العجيبة والبعيدة عن الموضوعية، وإجرائها مجرى الحقائق والمسلمات، ولعل الأمر يشطّ بنا في أثناء دراسة هذه المادة الثقافية (الحكاية الحيوانية) عند الشعوب القديمة، والتي ربما تكون من اختصاص علماء الأثنولوجيا[22] عامة وعلماء الأثنوجرافيا[23] خصوصا، إلا أننا رغم هذا نحاول القول بكل تحفّظ: إن هذه المادة القصصية مثلت باختصار تاريخا فكريا واعتقاديا بأسلوب أسطوري خرافي، على أنه تنبغي الإشارة - في هذا الصدد- إلى أن هذا التوحد الحاصل في الأصول الفكرية والاعتقادية للحكاية الحيوانية كان مدعاة إلى التشابه الشديد بين أغلب الآثار والحكايات - التي وجدت عند مختلف الشعوب قديما- من هذا الجنس الأدبي، ولعل هذا ما لاحظه الأخوان الألمانيان "جريم" بعد قيامهما بدراسة مسهبة ورحلة طال أمدها مع الحكاية الخرافية عند مختلف الشعوب؛ فقد خلصا بعد أن فهما عقلية وطبيعة الإنسان الأول، عن طريق هذه الرحلة، إلى أن هذا التشابه الواقع بين الحكايات الخرافية عند كلّ الشعوب، رغم ما يفصل بعضها عن بعض من مسافات زمانية ومكانية بعيدة، راجع إلى العديد من الأسباب أهمّها ثلاثة هي[24]:

1. تماثل الأفكار الإنسانية عند هذه الشعوب.
2. التشابه في الوقائع التي تواجههم.
3. التماثل في طرائق الحلول عند الشعوب القديمة.

وتجسيدا لهذا التماثل الحاصل على صعيد الحكاية الخرافية عند الشعوب القديمة يمكن أن نورد بعض الأخبار والقصص التي يحكيها المصريون القدامى حول شخصيات حيوانية، مثل

قصة الأرنب، إذ «يحكى مثلا أن أرنبا كان يسكن كنيسة، وبداخل هذا الأرنب كانت تعيش بطة بداخلها بيضة، فإذا حصل إنسان على البيضة وهشمها استطاع أن يتغلب على الشيطان ويقتله»[25]، ومثل هذه الموضوعات التي تتحدث عن وقوع أشياء داخل أشياء أخرى يصعب الوصول إليها، لها وجودها القوي على مستوى الحكاية الخرافية عامة، والشرقية خاصة، ومن مثل ذلك ما أورده بعض الدارسين من أمر الكتاب الذي يشرح ويصف فنون السحر وأساليبه المختلفة، والذي خُبّئ في صناديق عديدة، مما يعسّر الوصول إليه؛ فقد روي أن «هناك كتابا في السحر يصف فنون هؤلاء السحرة، ويقع هذا الكتاب في عرض البحر داخل صندوق من الحديد، وضع داخل صندوق من البرنز، وهذا بدوره في صندوق من خشب الصندل، ثم في صندوق من العاج، وهذا في صندوق من خشب "الآبونس"، ثم في صندوق من الفضة، وأخيرا وضع هذا في صندوق من ذهب، وقد كانت تلتف حول هذه الصناديق أفعى، كما عجّ البحر بالتنّين والعقارب وأفاعي دائرة حول الصندوق قطرها "ميل"»[26].

هكذا صورت هذه القصة أن الأشياء الثمينة التي تتصف بالعجائبية والأسرار، والتي تمنح أصحابها قوى خارقة يصعب الوصول إليها، ولا يكون ذلك إلا بسلك طريق شائك، وشاق لا تؤمن عواقبه.

ومن أمثلة ذلك أيضا بعض الأساطير التي أوردها الباحث "كلود لفي شتراوس" في كتابه: الأسطورة والمعنى، والتي تدور حول شخصيات حيوانية عند شعوب العالم الجديد من هنود الأمريكيتين، منها أسطورة "الأرنب" التي تفسر سبب انشطار أنف حيوان الأرنب، ويقوم "ليفي شتراوس" بسرد أحداثها إجمالا فيقول: «توجد شقيقتان تسافران بحثا عن زوج لكل منهما، لقد أخبرتهما الجدّة أنهما ستتعرفان على زوجيهما من صفات محددة، وستتعرضان لخداع محتالين تقابلانهما في الطريق، حيث سيتظاهر كل من المحتالين بأنه الزوج المرتقب، ولسوف تقضي كل منهما الليل مع محتال فتلد طفلا فيما بعد، وإثر هذه الليلة التعسة مع المحتال تترك الكبرى شقيقتها الصغيرة وتمضي لزيارة الجدة، وهي معزاة جبلية نصف ساحرة، وتعلم المعزاة أن حفيدتها قادمة فترسل الأرنب الوحشي لاستقبالها على الطريق، يختبئ

الأرنب البري تحت جذع شجرة ملقاة في منتصف الطريق، وحين ترفع الفتاة ساقها لعبور الجذع، يتمكن الأرنب من إلقاء نظرة على أعضائها التناسلية، ويقوم بدعابة غير لائقة، تثور الفتاة وتضربه بعصا، فتشطر أنفه»[27].

وهو خبر يتشاكل مع العديد من الأساطير والخرافات التفسيرية كالأسطورة التي تفسر الخط الأسود الموجود في حبة الفاصولياء، وغيرها من الأساطير والخرافات التي لجأ إليها الإنسان الأول لتفسير بعض الظواهر الكونية.

من هنا نلمس توحد المخيلة البشرية من خلال هذه النماذج التي تقحم الحيوان وتجعله فاعلا في حياة البشر؛ فوجودها عند كل شعوب العالم على هذه الصورة إنما هو برهنة قطعية على توأمة العقل البشري في مهده.

من هنا كان هذا التشابه تشابها في أصل الاعتقاد والتفكير، كما أنه تشابه في الواقع الواحد الذي تعيشه هذه الشعوب، والتي تتخذ الحلول ذاتها لما يواجهها من مشاكل على ما بينها من تباعد "زمكاني".

إضافة إلى ما سبق فإن حدوث مثل هذا التشاكل في نمط التفكير عند هذه الشعوب راجع أيضا إلى ما هو موجود بينها من تواصل معرفي وثقافي أو ما اصطلح عليه في الدراسات الثقافية بـ"الاتصال الثقافي"، ونحن بهذا لا ندّعي الوصول إلى ما يسمى بـ"الانصهار الثقافي" بين هذه الشعوب، بما يزيل عنها التميز، بل نصرّ على الاعتراف بالتواصل الثقافي الايجابي الكبير الذي حدث ومازال يحدث عند مختلف شعوب العالم.

وفي الأخير نستطيع القول: إن الإنسان البدائي لجأ إلى هذا الجنس الأدبي رغبة في تفسير حقائق الحياة ومظاهر الطبيعة التي حيّرته وقوضت عيشه، فلا سبيل لديه لتزول عنده هذه الحيرة، وهذا الافتقار للمعرفة، سوى اللجوء إلى تأليف مثل هذه الحكايات الخرافية والتي تكون قد ساعدت - في حينها- على تفادي حدوث "اختلال وظيفي"[28] في البنية الثقافية لهذه الشعوب؛ ذلك أنها بنهج هذا السبيل تكون قد تفادت نشاطا سلبيا يقع على النقيض، هو تركها لمثل هذا النشاط "الإبداعي".

كما يمكن القول أيضا: إن الحكايات الحيوانية والخرافية عامة كانت معينا هاما على فهم إنسان

العصر القديم بكل آماله وهمومه، وبنجاحاته وإخفاقاته، وغيرها من المدركات التي لا يتاح لنا كشفها عبر معارف أخرى؛ فالإنسان ما زال باحثا عن ماضيه من أجل فهم جيّد لحاضره، ذلك أن الماضي استحال سندا يثبت وجوده الاجتماعي في هذا الحاضر بكل تناقضاته.

من هنا وجب علينا التعامل مع هده المادة الأسطورية والملحمية والخرافية بوصفها قراءة جادة لتاريخ الإنسان القديم.

تتمظهر هذه القراءة من خلال تقصّي عناصر هذا التاريخ البشري (الثقافي، الاجتماعي..)، كما صورته الأعمال القصصية الأسطورية والخرافية التي خلّفها الإنسان الأول "البدائي"، على أن كلّ هذا الكلام يقتصر - في حقيقة الأمر- على بدايات هذا الجنس الأدبي، الذي أخذ في الارتقاء إلى مدارج الفنية والسير في مسالكها مع تعاقب الأزمان، إلى أن وصل إلى طبيعته الرمزية التي عرف بها في العصور المتأخرة، كما سنلمسه من خلال عرضنا له عند مختلف الشعوب، وذلك في موضعه اللاحق من هذا البحث.

الهوامـــش والمراجـــع

(1)- تعرف الاحتياجات عند الشعوب بالقوى الأساسية الكامنة وراء الظواهر الثقافية، بمعنى آخر الاحتياج الثقافي هو مجموعة كبيرة من الظروف التي يجب إشباعها، إذ ما أريد للمجتمع أن يبقى ولثقافته أن تستمر، وهناك احتياجات أساسية أو بيولوجية كالحاجة إلى التكاثر والتناسل وأخرى ثانوية مستمدة من الثقافة ذاتها؛ مثل حاجة= =السلوك البشري إلى التنظيم والجزاء. ينظر: إيكه هولتيكرانس. قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفولكلور. ترجمة محمد الجوهري، حسن الشامي. دار المعارف القاهرة. مصر. ط2. 1973م. ص24.

(2)- للأدب الشعبي تعريفات عديدة، منها: إنه نوع من الخلق الأدبي، وهو جزء هام من التراث الشعبي، ويتضمن الحكايات الشعبية والأغاني الشعبية وأهازيج الطقوس الدينية..الخ. ينظر: إيكه هولتيكرانس. قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفولكلور. ص32-33.

(3)-المعتقدات: جمع عقيدة، والعقيدة في اللغة، هي ما عقد عليه القلب والضمير، أو هي ما تدين به الإنسان واعتقده، أما اصطلاحا: هي البديهة التي تستقر في العقل الباطن للإنسان، فتؤثر في حدسه وشعوره، وتوجهه في تفكيره وسلوكه، أو هي ما يؤمن به الإنسان من حقائق الوجود وما يعتقد بحقيقته من الأخبار والتصورات. ينظر: محمد الزحيلي. تعريف عام بالعلوم الشرعية. دار الكوثر للنشر والتوزيع. برج الكيفان، الجزائر. دط. دت. ص91.

(4)- فريديريش فون ديرلاين. الحكاية الخرافية. ترجمة: نبيلة إبراهيم-عز الدين إسماعيل. دار غريب للطباعة والنشر.القاهرة- مصر. د ط. د ت. ص23-24.

(5)- المرجع نفسه. ص32.

(6)- المرجع نفسه. ص33.

(7)- المرجع نفسه.ص31.

(8)- المرجع نفسه.ص75.

(**9**)-المرجع نفسه. ص161.
(**10**)- المرجع نفسه. ص161.
(**11**)- ينظر: المرجع نفسه. ص161.
(**12**)- المرجع نفسه. ص163.
(**13**)- المرجع نفسه. ص163.
(**14**)- المرجع نفسه. ص163.
(**15**)- المرجع نفسه. ص163.
(**16**)- المرجع نفسه. ص172.
(**17**)- مرسي الصباغ. القصص الشعبي العربي في كتب التراث. ص59-60.
(**18**)- أحمد درويش. الأدب المقارن. ص74.
(**19**)- ينظر: محمد غنيمي هلال. الأدب المقارن. ص181-182.
(**20**)- محمد غنيمي هلال. الأدب المقارن. ص180.
(**21**)- الإيحاء المركزي هو قبول التوجيهات الصادرة عن الصفوة السياسية أو الاجتماعية أو الثقافية، فقد تؤثر بعض مراكز السيطرة أو حتى غزو من الخارج في ثقافة شعب ما تأثيرا عميقا. ينظر: إيكه هولتيكرانس. قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفولكلور. ص59.
(**22**)- الأثنولوجيا (**Ethnologie**) هي علم الإنسان باعتباره كائنا ثقافيا، وهي الدراسة المقارنة للثقافة، أو هي علم الشعوب وثقافاتها، وتاريخ حياتها بوصفها مجتمعات، بصرف النظر عن درجة تقدمها، وقد اشتهر هذا المصطلح بمعناه الواسع لأول مرة في عام 1839م. ينظر: إيكه هولتيكرانس. المرجع السابق. ص18-19.
(**23**)- الأثنوجرافيا (**Ithnographie**) هي الإثنولوجيا الوصفية، أي: ملاحظة المادة الثقافية من الميدان، وهي أيضا وصف- أوجه النشاط الثقافي كما تبدو من خلال دراسة الوثائق التاريخية، هذا هو التعريف العام لهذا المصطلح، وهناك العديد من التعريفات الأخرى والتي لا يتسع المقام لعرضها . ينظر: المرجع نفسه. ص59.
(**24**)- ينظر: فريدريش فون ديرلاين. ص31.

(**25**)- المرجع نفسه. ص170.

(**26**)- المرجع نفسه. ص170.

(**27**)-كلود ليفي شتراوس. الأسطورة والمعنى. ترجمة: صبحي حديدي. دار الحوار للنشر والتوزيع. اللاذقية- سوريا. ط1-1985م. ص27-28.

(**28**)- يقصد بالاختلال الوظيفي ذلك النشاط الذي يساهم في انهيار ثقافة أو مجتمع ما. ينظر: فريديريش فون ديرلاين. الحكاية الخرافية. ص32.